المقدمة

هذا كتاب عن الإمبراطورية، عن مظاهرها الخادعة وعن الصراع الدائم الطويل الذي يخوضه الناس في سبيل حريتهم. وهو كتاب يقدم الترياق المضاد للصيغ المرخص بها من السلطة عن التاريخ المعاصر، الصيغ التي تُراقب من خلال الحذف ومن خلال فرض المعايير المزدوجة. وآمل أن يكون هذا الكتاب إسهاماً في ما تدعوه فاندانا شيفا "ثورة المعرفة المخضَّعة"[1].

حين بدأت العمل صحافياً، كان هناك ما يدعى "الأخبار البطيئة". وكان من عادتنا أن نشير إلى "أيام الأخبار البطيئة" (وهي عادة أيام الأحد) حين كان "لا شيء يحدث" – أي، ما عدا الانتصارات والمآسي التي كانت تقع في أماكن نائية جداً حيث كانت تعيش معظم الإنسانية. والانتصارات، وهي المكاسب المجهدة الشاقة لأناس تواقين إلى أن يكونوا أحراراً، كانت نادراً ما يُعترف بها. وأما المآسي فكانت تستبعد بوصفها أعمالاً من الطبيعة، بصرف النظر عن البيّنات التي تدل على خلاف ذلك. وكانت السلطات الممنوحة لنا هي الصلاحيات الممنوحة للقوة الكبرى، من مثل: "حكوماتنا" و"مؤسساتنا".ولم يكن "للمنظر المأخوذ من الأرض"قيمة إلا إذا كان يعزز المنظر القادم من أعلى فقط. وكانت مجتمعات كاملة توصف وتقاس بعلاقاتها "معنا"، وفائدتها "لمصالحنا" ودرجة امتثالها (أو عدائها) لسلطتنا. وفوق كل شيء، فهم ليسوا "نحن".

هذه الادعاءات الاستعمارية لم تتغير. وللمحافظة عليها، يبقى ملايين من الناس مستورين عن النظر، ويمكن الاستغناء عنهم والتضحية بهم. في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، وفي الوقت الذي كان فيه العالم يبكي على الأموات من الناس الأبرياء في الولايات المتحدة، قدمت منظمة الأغذية والزراعة في الأمم المتحدة تقريراً

يبين أن معدل الوفيات اليومي كان مستمراً: لقد مات 36.615 طفلاً من آثار الفقر المدقع. وكان هذا عادياً في عصر "النمو الاقتصادي"[2].

وقدم هذه الإحصاءات الشعب الذي يمكن الاستغناء عنه والتضحية به من نيكاراغوا المقفرة، وفي مطالع الثمانينيات من 1980، استعرض المؤرخ مارك كيرتيس في دراسة استطلاعية له خمسمائة مقالة في الصحافة البريطانية عالجت أوضاع نيكاراغوا. فوجد طمساً شاملاً تقريباً لانتصارات حكومة الساندنيتسا لصالح أكذوبة "تهديد الاستيلاء الشيوعي على السلطة"، وكانت تلك الأكذوبة في حينها دعاية أنجلو – أمريكية. وكتب يقول: "يحتاج الأمر إلى بهلوانيات فكرية ضخمة لوصف نجاح الساندنيتسا في تخفيف الفقر- وهو نجاح يلفت الأنظار بكل المعايير- بأنه كان نجاحاً لا يستحق الكثير من التعليق وفق المؤشرات الموضوعية... وقد يمكن للمرء أن يستنتج بشكل معقول أن تقارير التغطية كانت مشروطة بمجموعة مختلفة من الأسبقيات، وهي مجموعة توافقت مع تيار تزييف المعلومات من واشنطون ولندن"[3].

وفي الوقت نفسه، فإن البليّة الفظيعة القسوة المعروفة باسم "قضية إيران – كونترا" كانت قد عرضت في واشنطون بصفتها إحراجاً محلياً لإدارة ريغان أكثر مما هي مؤامرة لإدماء الحكومة النيكاراغوية حتى الموت، وهي الحكومة التي كان التهديد الوحيد منها هو أنها قدمت النموذج الجيد. أما أن عدداً لا يحصى من الناس الأبرياء قد قتلوا أو حرموا فرصتهم في أن يحرروا أنفسهم من الفقر، والمرض، والأمية فإن ذلك لم يكن "قضية" أبداً. وقد أفرد حكم لاحق من محكمة العدل الدولية إدارة ريغان وميزها بأنها الحكومة الوحيدة التي سبق للمحكمة أن أدانتها بسبب "الإرهاب"، ودعتها المحكمة إلى أن تدفع إلى الحكومة النيكاراغوية 17 بليون دولار من التعويضات. ولكن هذا أهمل ونسيت المسألة من وقت طويل، وذلك لأنها كانت أبطأ الأخبار[4].

وفي العام التالي، العام 1987، أجازت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً ينص أن على جميع الدول الأعضاء أن يحاربوا "الإرهاب حيثما كان وكائناً من كان

الذي ارتكبه" وصوتت ضده دولتان فقط هما: الولايات المتحدة وإسرائيل. ولم يغط هذا في التقارير في ذلك الوقت. وحين مات رونالد ريغان امتدح بوصفه "متواصلاً عظيماً"، وقائداً ذا سحر شخصي مغناطيسي. أما إرهابه، واستباحته للقانون فكانت غير قابلة للذكر[5].

ويُرى الاحتلال الحالي للعراق من العالم الموازي نفسه. فحين طُلب من هيلين بودن، مديرة الأخبار في محطة هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2006 أن تشرح كيف كان يمكن لواحد من مراسيلها في العراق "الملتحقين بالوحدات العسكرية" أن يصف هدف الغزو الأنجلو – أمريكي بأنه "استحضار الديمقراطية وحقوق الإنسان" إلى العراق، أجابت مع مجموعة من الاقتباسات من طوني بلير بأن هذا هو فعلاً هدفه، وكأن كذب طوني بلير السيئ السمعة الآن والحقيقة كانا متوافقين. ولم يكن مطلوباً أي دليل آخر.[6] وكان من عادة مثل هذه العبودية الواقعية أن تحير الصحفيين السوفيت الذين كانوا يزورون الغرب في أثناء الحرب الباردة وتربكهم. وقد نكت واحد منهم مرة بالسؤال: "كيف حققتم ذلك؟ ففي بلادنا، ننزع أظافر الأصابع لنحصل على تلك النتيجة!"[7].

في 28 آذار/مارس من العام 2003، في أثناء الهجوم على العراق، قتل اثنان وستون شخصاً بصاروخ أمريكي انفجر في منطقة الشولة من بغداد. في ذلك المساء، قام برنامج أخبار الليل (نيوز نايت) في محطة هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، وهو البرنامج المنتظم الوحيد المتلفز للأحداث الجارية، قام بتخصيص خمسة وأربعين ثانية للمجزرة – أقل من ثانية لكل وفاة. قابل ذلك مع 7 تموز/يوليو من العام 2005، حين أدى الانفجار الإرهابي في لندن إلى قتل العدد نفسه تقريباً من الناس وتلقى ذلك الانفجار التغطية التي جعلتنا بين عشية وضحاها عارفين معرفة حميمة بحياة الضحايا، وكنا نستطيع أن نحزن لفقدهم أو أن نحيي شجاعتهم.

وبكلمات أخرى، فبالنسبة إلى الرجال، والنساء، والأطفال الذين يتفجرون إرباً إرباً في بغداد فإنهم محرومون من التضامن الذي نقدمه بشكل طبيعي إلى

ضحايا لندن، ولم يكن مسموحاً لنا أن نعرفهم. لماذا؟ هم، بالتأكيد، لم يكونوا "نحن"، ولكنهم كانوا ضحايانا – أي، لقد ماتوا على أيدي قوات متواطئة مع حكومتنا، وباسمنا.

حين كنت أكتب هذا الكتاب، في مطلع العام 2006، أزيلت من الوجود ثلاث عائلات في ثلاث مدن مختلفة في العراق بالصواريخ والقنابل الأمريكية. إحدى العائلات فقدت سبعة عشر عضواً منها والأخريان أربعة عشر عضواً وسبعة أعضاء، وكان الضحايا في معظمهم من النساء، والشيوخ، والأطفال. ولكن فناءهم العنيف لم يحدث أي تمويجة في الظاهرة التي صنعها الإنسان والمعروفة باسم "مجرى التفكير العام السائد" وهو المصدر الرئيسي لما ندعوه الأخبار. وكنت أتصفح الإنترنت فتصادف أن قرأت كل الأسماء السبعة عشر للموتى من العائلة الأولى. وقد جمع أسماءهم وأعمارهم بعناية شديدة وأعلنها مراسل أمريكي مستقل، هو داهر جاميل، ولكن عمله البارز، عمل شاهد العيان والتحقيق المستقصي لم يظهر أبداً في "مجرى التفكير العام السائد"[8].

الناس الأبرياء الذين قتلوا في لندن كانوا ضحايا جليلة القيمة. والناس الأبرياء الذين قتلوا في العراق كانوا ضحايا غير جليلة القيمة. وإذا صيغ الكلام بطريقة أخرى، فإن مجزرة لندن كانت تستحق شفقتنا، وأما فظاعات العراق فلم تكن تستحق مثل تلك الشفقة.

وهذا المنطق لا يتبع دائماً مساراً صحيحاً. فحين كان صدام في السلطة وكان يُخطب وده ويسلح حتى أسنانه منا "نحن" وبشكل ملحوظ بالتقانة اللازمة لبناء أسلحة التدمير الشامل، كانت المجازر العراقية للأكراد على يدي صدام أخباراً بطيئة. وحين هاجم صدام، في العام 1988، القرية الكردية حلبجة بغاز الأعصاب، وقتل خمسة آلاف نسمة، بذلت الحكومتان البريطانية والأمريكية أفضل جهودهما لتثبيط تغطية تلك الفظاعة الوحشية، وذهب الأمريكيون إلى حد إلقاء اللوم على إيران. وحين استعلمت أنا في ذلك الوقت عن الحدث، أخبرتني وزارة الخارجية في لندن بأنه كان من "السهل إلى حد بعيد جداً" إلقاء اللوم على صدام.

أما في العام 1991، حين أثار صدام استياء كافليه في واشنطون ولندن من جراء قيامه بمهاجمة زبون آخر من زبائنهم، وهي الكويت، وكان الآن عدواً رسمياً، صارت بلوى الأكراد العراقيين فجأة قضية خيرية كبيرة في الغرب. وأغدقت عليهم العناوين الرئيسية والتغطية بالأشرطة التلفازية الطويلة. لقد جعلوا الضحايا ضحايا جليلة القيمة لا مثيل لها. ولكن ويا للأسف، فإن هذا التحول في المكانة لم ينطبق على الأكراد عبر الحدود في تركيا، وذلك على الرغم من أنهم كانوا جزءاً من الأمة المسلوبة نفسها وكان يجري ذبحهم بأعداد أكبر بكثير على أيدي القوات العسكرية التركية. ونظام الحكم في أنقرة عضو في حلف الأطلسي ومستفيد من "العون" الأنجلو – أمريكي، ومن البنك الدولي ومن صندوق النقد الدولي. وفي الحقيقة، وفي ذروة كرب الأكراد الأتراك، تسلمت القوات العسكرية التركية ما قيمته 8 بلايين دولار من المنح الأمريكية من الدبابات، والطائرات، والطائرات العمودية والسفن[9]. وفي العام 2006 بقي أكراد تركيا ضحايا غير جليلة القيمة.

وبموجب القاعدة المبنية على التجربة العملية نفسها، فإن الجريمة تكون جريمة إذا كان مرتكبوها "هم"، وليسوا "نحن". وقد أشار هارولد بنتر في خطابه الرائع المتفوق في قبوله لجائزة نوبل للأدب في العام 2005 إلى "نسيج مزخرف شاسع من الأكاذيب نتغذى عليه"، وسأل لماذا كانت "الوحشية المنهجية، والفظاعات القاسية الواسعة الانتشار، والقمع الذي لا تأخذه رحمة للفكر المستقل"، في روسيا الستالينية أموراً معروفة معرفة جيدةً في الغرب في حين كانت الجرائم الإمبراطورية الأمريكية مجرد أمور "مسجلة تسجيلاً سطحياً، دع عنك أن تكون موثقة، ودع عنك أن تكون معترفاً بها".

كان يشير إلى صمت كبير، لم يكسره ضجيج لا ينقطع من عصر وسائل الإعلام. ففي كل أنحاء العالم، يمكن أن يعزى إفناء أعداد لا تحصى من بني البشر والمعاناة التي يعانونها إلى أمريكا الجامحة. وقال بنتر: "ولكنكم لن

تعرفوها. فهي لم تحدث أبداً ولم يسبق أن حدث شيء أبداً. لا بل إنها وهي تحدث لم تحدث أبداً. إنها لا تهم. ولم تكن موضع اهتمام"[10].

ولكن هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، ويا للأسف المخجل لها، وبرغم أن هذا أمر لا يثير الدهشة منها، تجاهلت تحذير بنتر. فكل ذلك الانتفاخ في غرفة الاستقبال تلك حول الفنون، وكل ذلك التأنق لآلات التصوير في مناسبات منح جائزة بوكر، لم يستطع مع ذلك أن يجعل الإذاعة القومية تفسح حيزاً لأعظم مسرحي حي في بريطانيا، كُرّم على هذا النحو، ليقول الحقيقة. فالأمر بالنسبة إلى هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) لم يحدث أبداً.

وبعد ذلك بقليل، وقد حُرمت من وعي المفارقة الساخرة، قدمت مذيعة الأخبار فيونا بروس فيلم دعاية لعيد الميلاد عن كلاب جورج دبليو بوش بوصف ذلك أخباراً. وأظهر الفيلم كم كان الرئيس وعائلته لطفاء. هذا أمر حدث. والآن تخيل بروس تقرأ هذا: "في ما يلي أخبار مؤخرة، وردت قبل قليل. من العام 1945 إلى العام 2005، حاولت الولايات المتحدة أن تطيح بخمسين حكومة، العديد منها ديمقراطيات، وأن تسحق ثلاثين حركة شعبية تقاتل أنظمة حكم استبدادية. وفي أثناء ذلك، قُصف خمسة وعشرون بلداً بالقنابل وهو ما تسبب في فقدان عدة ملايين لحياتهم وتسبب في حصول اليأس لمزيد من الملايين"[11].

لقد كان واحداً من الملامح اللافتة للنظر لعصر ما بعد الحرب الباردة هو إعادة التأهيل العلني لمفهوم الإمبراطورية. فمثلما قال رئيس الوزراء هارولد ماكميلان سراً في الخمسينيات من 1950، فإن مجموعة جديدة من الإمبراطوريين تندب الآن جهاراً "فقدان المكانة البيضاء" التي كانت هي الإمبريالية الإمبراطورية وكانت التشويه لسمعة "ثقافتنا"[12]. لقد صارت "الثقافة"هي الترميز للعرق وللطبقة، والمراجعة التعديلية هي كل الغضب المتفجر. لقد مجدت وول ستريت جورنال المغامرة الإمبراطورية المدمرة التي قامت بها بريطانيا وفرنسا في السويس في العام 1956، ووصفت المعارضة الأمريكية بأنها "ربما كانت أكبر غلطة إستراتيجية في

عصر ما بعد الحرب"[13] ويبتهج الأكاديمي جون كيسي في كمبريدج بأن القوى الغربية الآن "تستطيع أن تفعل ما تحب [في العالم النامي]"[14].

وكتب فرانك فيوريدي في الإيديولوجية الجديدة للإمبريالية يقول: "من السهل أن ننسى أن الادعاءات الأخلاقية الإمبريالية (السياسة الإمبراطورية) كانت حتى الثلاثينيات من 1930 نادراً ما توضع موضع الاستجواب في الغرب. لقد عرضت الإمبريالية والتوسع الكوني للقوى الغربية بتعابير إيجابية بشكل لا غموض فيه، لقد عرضت بوصفها مسهماً كبيراً في الحضارة الإنسانية... وكون المرء إمبريالياً (من دعاة الإمبراطورية) كان يعتبر شارة سياسية محترمة"[15]. وحين برزت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية وتخلصت مما يحب "الأطلسيون" أن يدعوه "عصر البراءة" (ناسين مذابح الأمريكيين المحليين، والرق، وسرقة تكساس من المكسيك، والإخضاع الدموي لأمريكا الوسطى، ولكوبا والفلبين، والأعمال البريئة الأخرى)، أسقِطت "الإمبريالية" من نصوص الكتب الأمريكية وأعلنت مسألة أوروبية. وكانت إحدى المشكلات التي تواجه دعاة الإمبراطورية الفخورين في الفترة الواقعة مباشرة بعد الحرب، هي أن هتلر والفاشية، وجميع أفكارهم عن التفوق العرقي والثقافي، قد تركت تراثاً من الإثم بالترابط. فالنازيون كانوا أيضاً، دعاة إمبراطورية فخورين.

وتبع ذلك حملة خطيرة، وإن تكن سخيفة، لشطب الكلمة من اللغة "على أساس أنها عزت بشكل كاذب دوافع لاأخلاقية للسياسة الخارجية الغربية" ونُظر إلى اللفظة على أنها لم تبق بعد الآن ذات "علاقة". وأما أولئك الذين استمروا مصممين على استخدامها بوصفها لفظة تحقيرية فقد كانوا أناساً "غير محترمين" و"شريرين". وقد كتب أحد المؤرخين الأمريكيين يقول، لقد كانوا "ملهمين من العقيدة الشيوعية". أو أنهم كانوا "مثقفين زنوجاً لهم ظلامات تخصهم ضد الرأسمالية البيضاء"[16].

ووفق أفضل تقليد ستاليني، فإن الإمبريالية قد أخفيت مثلما تخفى لطخة ببخاخ الدهان الهوائي. وقد كتب فيوردي يقول: "إن مثقفي الحرب الباردة بقيامهم

بإنكار مركزية الهوية الامبريالية للمجتمع الغربي، كانوا ينكرون ماضيهم الخاص. فهم لم ينكروا أن الإمبريالية كانت شيئاً ينبغي الخجل منه، إنهم أنكروا فحسب كل ارتباط لهم بها"[17].

وقد تغير ذلك في التسعينيات من العا 1990. فمع انهيار الاتحاد السوفيتي، تشجع الإمبرياليون. فالأزمات الاقتصادية والسياسية في العالم "النامي" التي سببها الانهيار في أسعار السلع ونهوب الدَّين، سوف تخدم الآن لتكون تبريراً للإمبريالية بأثر رجعي. ومرة أخرى، احتاج "العالم الثالث"إلى أن يُنقَذ من نفسه. إن رحلة عودة الإمبريالية إلى كون المؤسسة الإمبريالية محترمة قد بدأت.

إن نظرية تآمرية خلاصية مسيحية سميت "مشروع من أجل القرن الأمريكي الجديد" وقد كتبها كافلو بوش الإيديولوجيون قبل قليل من وصوله إلى السلطة في العام 2000، تكهنت بإدارته بوصفها دكتاتورية إمبريالية خلف مظهر خادع ديمقراطي: "الخيالة على الحدود الأمريكية الجديدة" وتستطيع "أن تقاتل وتكسب مسارح حروب متعددة كبيرة في وقت واحد معاً"[18] وقد ضمنت الهجمات التي وقعت على الولايات المتحدة في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001 أن تصير النظرية تطبيقاً، وصارت "حرب"مخادعة "على الإرهاب"هي الحرب على الإرهاب.

وقد سبق لخطة وضعتها وزارة الدفاع بعنوان رؤية للعام 2020 أن حددت الهدف بأنه "هيمنة الطيف الكامل". وهذا ما سيسمح "لوسط الفضاء، وهو الوسط الرابع للحرب – مع الأرض، والبحر، والجو، – بأن يغلق الفجوة المتوسعة دائماً بين الموارد المتضائلة وبين الالتزامات العسكرية المتزايدة"[19]. وقد تكهن الجنرال جون جمبر من سلاح الجو الأمريكي بأن من السهل السيطرة على كوكب الأرض لأن القوات الأمريكية تنعم بـ "عين الله"من الأقمار الاصطناعية وتتحكم في "شبكة المعلومات الكونية"[20]. لديه نقطة. فهناك أكثر من 725 قاعدة أمريكية موضوعة إستراتيجياً في البلدان الممتثلة، وهي بشكل ملحوظ عند بوابات الطرق المؤدية إلى موارد المحروقات المستحاثية وتدور حول الشرق الأوسط وآسيا الوسطى[21].

لم تبق كلمة "إمبراطورية"تهمس بعد الآن همساً، إنها كلمة ينبغي احتضانها ثانية. لقد صرح وزير المالية البريطاني غوردون براون لجريدة الديلي ميل بالقول إن: "الأيام التي كان فيها على بريطانيا أن تعتذر عن الإمبراطورية البريطانية قد انتهت. ويجب أن نحتفل"[22]. وأصر المؤرخ أندرو روبرتس في الديلي إكسبريس على ذلك وقال: إنه بالنسبة إلى "معظم تاريخ الإمبراطورية البريطانية المديد الذي يصل إلى نصف ألفية في طوله، فإنها كانت قوة نموذجية للخير"[23]. وفي الديلي تلغراف صرح المؤرخ العسكري جون كيغان أن الإمبراطورية "مفيدة وأخلاقية إلى حد بعيد"[24]. وفي الثناء على سفن بلير الحربية الأخلاقية وعلى القناعات الغلادستونية عن التفوق، قال نيل فيرغسون أستاذ العلوم السياسية في أكسفورد: "قد تكون الإمبريالية كلمة قذرة، ولكن حين يدعو طوني بلير بشكل أساسي إلى فرض القيم الغربية – الديمقراطية وما شابه ذلك – فإنها في الحقيقة لغة الإمبريالية الليبرالية... فرض آرائك وممارساتك على الآخرين".[25]

أمانة فيرغسون مستفزة "للواقعيين الليبراليين"الذين يسيطرون على دراسة العلاقات الدولية في بريطانيا ويعلّمون أن دعاة الإمبراطورية الجدد هم مديرو أزمة العالم، أكثر مما هم سبب الأزمة. ومع استثناءات مشرِّفة، فإن علماء العلوم "الجيوسياسية" هؤلاء قد أخرجوا الإنسانية من دراسة الأمم وجمدوها مع رطانة تخدم القوة الكبيرة. وبعد أن طرحوا مجتمعات كاملة لتشريح جثثها، فقد حددوا "دولاً مخفقة" و"دولاً مارقة"، ودعوا إلى "التدخل الإنساني" – وهو تعبير يستخدم من اليابان الإمبراطورية لوصف غزوها الدموي لمنشوريا. (واستخدمه موسوليني أيضاً لتبرير الاستيلاء على الحبشة، مثلما فعل هتلر حين اندفع النازيون إلى أرض السوديت.)[26]

هناك تنويعات صغيرة. فمايكل إغناتييف، الأستاذ السابق لحقوق الإنسان في هارفارد والمساند المتحمس لغزوات الغرب، يفضل "التدخل الليبرالي".[27] ومن المعجم نفسه من الكنايات الإمبراطورية الحديثة جاء تعبير "مواطن دولي صالح (أي، تابع غربي) وجاء تعبير "الحكم الصالح" (أي، اقتصاد ليبرالي جديد يديره البنك الدولي

وصندوق النقد الدولي). وسبق أن تم الاستيلاء بغير حق على المفاهيم النبيلة: "فالديمقراطية" (أي، نظام حكم موال لواشنطون) و"الإصلاح" (أي، تفكيك الإصلاحات الاجتماعية الأصيلة) و"صنع السلام" (أي، الحرب). ومازال الأكاديميون والمعلقون يصفون طوني بلير وبل كلنتون، بشكل لافت للنظر، بأنهما " وسط – يسار"، وهو إنكار للسجل التاريخي.

"فالوسط"، طبعاً، ليبرالي ومعقول، وذلك لأن الليبرالية ليست إيديولوجية. فذلك هو حجر المحك الأسطوري لأقوى إيديولوجية في العالم. وقد كتب في الغارديان كاتب العمود هوجو يونغ في العام 1997 يقول، إن طوني بلير "يريد أن يخلق عالماً لم يعرفه أحد منا، عالماً تكون فيه قوانين الجاذبية السياسية مقلوبة [و] تكون الإيديولوجية فيه قد استسلمت استسلاماً كلياً ""للقيم"""[28] وأما أن بلير سوف يقترف، وهو يتابع هذه "القيم"، جريمة الغزو، من غير استفزاز، لبلد لا يمكنه الدفاع عن نفسه، وهو الأمر الذي وصفه قضاة نورمبيرغ بأنه "أعظم جريمة في الحرب"فقد كانت مسألة لا تخطر في الفكر. وقد كتب هايول وليامز يقول: "إنها لأسطورة جميلة ومريحة القول إن الليبراليين هم صناع السلام وأن المحافظين مساعر حرب، ولكن إمبريالية الليبراليين قد تكون أكثر خطراً بسبب طبيعتها المفتوحة النهاية – قناعتها بأنها تمثل شكلاً من الحياة هو أعلى تفوقاً من غيره".[29]

ليس مثيراً للدهشة أن بلير "الليبرالي"قد أخذ بريطانيا إلى الحرب مرات أكثر عدداً من أي رئيس وزراء في العصر الحديث، وليس مثيراً للدهشة أن أقرب حليف له، أو ناصحه الأمين، وهو جورج دبليو بوش، قد اعتبر من قِطاع كبير من الإنسانية أخطر رجل على وجه الأرض. وما يوحدهما ليس تطرفهما، بل توحدهما استقامة رأي عريقة من قديم الزمان، ويُحتفى بها بلا شفقة ولا رحمة في "مجرى التفكيرالعام السائد" وهذه، كما كتب ريتشارد فولك، وهو أستاذ العلاقات الدولية في برنستون والمنشق البارز، "تنظر إلى القانون والأخلاق بوصفها نابية غير ذات علاقة في تحديد السياسة العقلانية". وهكذا، فالسياسات والأعمال الغربية قد صيغت منذ وقت طويل "من خلال نظام فرز يدّعي الصلاح ويزكي نفسه، وذي

طريق واحد، وقانوني/أخلاقي (مع) صور إيجابية للقيم الغربية وللبراءة الغربية تُصوَّر على أنها مهددة، وتقر شرعية حملة من العنف السياسي غير المحدود.." وهذا، "مقبول قبولاً واسعاً... لكي يكون بحكم الواقع غير قابل للتحدي"[30].

كتاب الحرية في المرة القادمة يدفع إلى الخلف هذا الفرز الأخلاقي ذا الطريق الواحد ليبين عملياً أن الإمبريالية، في أي زي تخفّت، هي النقيض لما هو "محب للخير وأخلاقي". وقد وضعت كل فصل من الكتاب في بلد كان لي معه ارتباط طويل مراسلاً ومخرجاً للأفلام. وقد حاولت، مع إحساس بالتاريخ، أن أوصل شيئاً مما رأيته وما هز عواطفي – الألم اليومي، والفكاهة السوداء وكرم الأحياء الذين عاشوا على مسافة بعيدة منا وانتزعت منهم الإنسانية بصورة تلائم الغرض في خط تجميع الإنتاج الغرائبي (السيريالي) من "لقطات إعلامية" من أطفال يلعبون بين القنابل العنقودية في كابل إلى الإذلالات المهينة الطقوسية المفروضة على الفلسطينيين، إلى تصميم النساء المفقّرات في جنوب أفريقيا على إنشاء بيوتهن الخاصة الحديثة. والقصص هي قصص شهود العيان والأقوياء، ومن جملتها الأصوات التي تتحدث من المنعات المصفحة للإمبريالية البريطانية حيث كتبوا فيها مقاصدهم الحقيقية التي لم يكن مراداً منها أن تكون ظاهرة لعيوننا.

هؤلاء الأطياف المخبرون بالصدق يظهرون في الفصل الأول وهو "سرقة أمة". ومع ذلك فإن معرفة هذه القصة كما أعرفها تجعلني باستمرار أجد جرأتها الإجرامية المتطاولة أمراً لا يكاد يصدق تقريباً. ففي سرّية عالية، وفي أثناء أواخر الستينيات من العام 1960 ومطالع السبعينيات من 1970، خدعت الحكومات البريطانية، وقسرت وأخيراً طردت جميع سكان جزر تشاغوس في المحيط الهندي كي تعطي الجزيرة الرئيسية وهي دييغو غارسيا، وهي جنة، إلى الأمريكيين لتكون قاعدة عسكرية. ومن هنا هوجمت العراق وأفغانستان. إن كون سكان الجزر مواطنين بريطانيين ولهم جذور في الجزر يعود في تاريخه إلى القرن الثامن عشر، وإن كونهم تكلموا بلغتهم الخاصة ومارسوا ثقافتهم الخاصة، كل ذلك لم يغير من الأمر شيئاً. فقد تم خطفهم منهجياً على أيدي حكومتهم وأرسلوا إلى المنفى إلى الأحياء

المكتظة الفقيرة في موريشيوس، وهي المكان الذي أصيبت فيه أعداد كبيرة من المخطوفين بالهزال، ومن جملتهم الأطفال الذين ماتوا "بكل بساطة من الحزن" كما أخبرتني بذلك أمهاتهم.

البطش الذي لا رحمة فيه ولا شفقة كان واضحاً – " والهدف هو الحصول على بعض الصخور التي ستبقى لنا". وقد كُذِب على الأمم المتحدة، وكأن شيئاً من هذا ما كان يحدث. وفي الوقت الذي هللت فيه مارغريت تاتشر ووسائل الإعلام البريطانية للأسطول البحري الملكي وهو يسرع لإنقاذ ألفين من البيض من سكان جزر الفوكلاند في العام 1982، فإنهم لم ينبسوا بكلمة واحدة حول النزع الوحشي للملكية من ألفين من سكان جزر تشاغوس الذين هم من السود. وحين لمح سكان الجزر، بعد ثمانية عشر عاماً، حريتهم في حكم للمحكمة العليا قضى بأنهم قد أوذوا وأن باستطاعتهم العودة إلى وطنهم، خدعوا مرة أخرى من حكومة بلير، وصدر مرسوم من "الامتياز الخاص الملكي". وهي آلية قديمة سرية، واستخدم للتحايل على القانون والعدالة.

وفي وقت كتابة هذا الكتاب، كانت المحكمة العليا تجري "مراجعة قضائية" وسكان الجزيرة ينتظرون آخر حكم لها بقلق. إن الظلم الذي وقع من قبل هو تعبير مجازي عن القرصنة الكبيرة التي بدأت منذ أكثر من خمسمائة عام حين مُنح القراصنة الأوروبيون امتيازات "الاكتشاف والاستيلاء" في عالم اعتبره البابا والملوك ملكيتهم، وينبغي التصرف به وفق حقهم الإلهي المقدس. هذا الافتراض للقدسية الإلهية لم يتغير.

وعنوان الفصل الثاني، وهو "المحرّم الأخير". مأخوذ من مقالة كتبها الكاتب والعالم الفلسطيني المولد إدوارد سعيد، ونشرت بعد وفاته بقليل في العام 2002. فقد كتب يقول: "يمكن الإقرار باستئصال الأمريكيين المحليين، ويمكن مهاجمة أخلاقية هيروشيما، وأن يوضع العلم القومي [للولايات المتحدة] علناً في لهيب النار. ولكن الاستمرار المنهجي لاضطهاد إسرائيل وسوء معاملتها للفلسطينيين طوال 52 عاماً هو بحكم الواقع أمر غير قابل للذكر، إنه قضية لا يسمح لها في أن تظهر"[31].

وتبدأ القصة قبل أربعين عاماً تقريباً حين وصلتُ إلى فلسطين مراسلاً شاباً واستمعت إلى الفلسطينيين وإلى الإسرائيليين، ورأيت المخيمات الجدباء للاجئين. وفي وصف إدوارد سعيد "الدور المدمر"للصحافيين الأجانب الذين تجاهلوا التاريخ وسياق خيبة الأمل الفلسطينية والعنف، فهِم هذا الكاتب المحرم الذي رآه الكثيرون منا واستنكروه سراً في الوقت الذي تغذى فيه الأساطير القاتلة ويطوّل أمدها.

في العام 2002، وجدت دراسةٌ قامت بها جامعة غلاسغو أن 9 بالمائة لا أكثر، من المشاهدين البريطانيين الشباب لأخبار التلفاز كانوا يعرفون أن الإسرائيليين هم قوة الاحتلال وأن المستوطنين غير الشرعيين كانوا يهوداً: وكثيرون من المشاهدين اعتقدوا أنهم فلسطينيون. وكان تعبير "الأراضي المحتلة" نادراً ما يشرح، ولم يُعلَم الناس أن الفلسطينيين كانوا هم ضحايا احتلال عسكري غير شرعي. وكانت اللغة تستخدم استخداماً انتقائياً، وكانت ألفاظ مثل "قاتل" و"فظاعة قاسية" تستخدم بشكل مقصور على الأموات من الإسرائيليين. فهم وحدهم فقط كانوا ضحايا جليلة القيمة. أما أموات الفلسطينيين فلم يكونوا يصلون إلى قدر الأخبار البطيئة بقدر ما كانوا أخباراً لا وجود لها[32].

وفي نهاية العام 2005، حين وقع رئيس وزراء إسرائيل آريل شارون مريضاً مرضاً خطيراً وحيّوه بوصفه "رجل سلام"، رجلاً إذا مات فإن "أمله في دولة فلسطينية"قد "يفقد" وبدا وكأن شبح لويس كارول قد أخذ القصة الممنوعة وهرب. وحين انتخبت حماس مباشرة بعد ذلك للسلطة في الأراضي المحتلة وغزة، استقبلت الأنباء في الغرب من خلال المرآة نفسها. النوع الخطأ من الديمقراطية قد تكلم وهي تتطلب بالتأكيد حلاً بريختياً: "أن يحل الشعب/وينتخب آخر". وإن كون صعود حماس كان ناجماً في جزء غير قليل منه عن الدعم السري الماكيافيللي لإسرائيل وعن الحملة الأنجلو – أمريكية لتدمير العروبة العلمانية وأحلامها "المعتدلة"في الحرية هو أمر غير جدير بالذكر[33].

ويكتب مايك ديفيز في تاريخه في العام 2001، المحارق الفكتورية المتأخرة، أن ما يصل مجموعه إلى تسعة وعشرين مليون هندي ماتوا بلا داع ضروري في

مجاعات فرضتها السياسات البريطانية بإرادتها. وهو يروي كيف أن نائب الملك في العام 1876، اللورد ليتون، أصر على أن لا شيء يجب أن يمنع تصدير القمح والرز الفائضين إلى إنجلترا وأن المسؤولين قد أمروا بأن "لا يشجعوا أعمال الإغاثة بكل طريقة". وحين مات الملايين جوعاً، شنت الحكومة الإمبراطورية "حملة معسكرة لجمع المستحقات المتأخرة من الضريبة المتراكمة في أثناء الجفاف". وفي المقاطعات الشمالية الغربية فقط، وهي التي جاءت بمحاصيل قياسية في السنوات الثلاث السابقة، مات مليون وربع المليون نسمة على الأقل[34].

وسوف يتمكن ستالين لاحقاً من مضاهاة هذا العمل في أوكرانيا، على نحو مخز، وكانت هذه هي نقطة هارولد بنتر: نحن نعرف عن جرائم ستالين، ونحن لا نكاد نعرف شيئاً عن جرائمنا. إنها تنويه بترويج النخبة لتلك "القوة النموذجية للخير"بأن هند الراج (حكم الهيمنة البريطانية) تبقى بشكل رئيسي مصدراً للحنين المرير اللذيذ. ففي الوقت الذي يُعلَّم فيه الشباب البريطانيون التاريخ الحديث مشروطاً إلى حد بعيد بشرور هتلر و"الحرب الخيرة"– وهي "الحمّام الأخلاقي الذي تم فيه التكفير عن خطايا قرون من الاستيلاء، والرق والاستغلال"، كما كتب ريتشادر درايتون – فإن قصة الكيفية التي جلب بها حكم الراج على الهند مداه الخاص به من المعاناة الإمبراطورية، هي، على أكبر تقدير، ملاحظة هامشية[35].

وفي فصلي الثالث، وهو "الهند المشرقة"، فإن تراث حكم الراج ماثل في الهند المستقلة: في إنكار النخبة للفقر الدائم. لقد ذهبت أول مرة إلى الهند في الستينيات من العام 1960، في ذروة مجاعة في راجستان. وكما هو الحال في زمان الراج، فإن لفظة "مجاعة" كانت تقابل رسمياً بالاستنكار والعبوس، كانت تفضل عليها كلمة "طوارئ". وأما الذين سألوا بعمق شديد عن الأحوال غير المعقولة الإجرامية التي أدت إلى إفقار الجماهير الهندية فلم يكونوا موضع ترحيب، وقد منع عديدون من مخرجي الأفلام الأجانب. وفي العام 2004، بعد غياب طويل، عدت إلى أعظم مدينة هندية، عدت إلى مومباي، التي احتشدت فيها حركات الحرية القومية، وعاش فيها غاندي، ووصلت إليها اليوم إمبراطورية جديدة: وهي "التجارة الحرة"

البوشية والاستهلاكية البورجوازية، ومراكز الاتصالات، ونظام وحشي يقوم على حكم الأفضل، وصراع جديد من أجل الحرية.

في العام 1967، منعت من دخول جنوب إفريقية العنصرية. وبعد ثلاثين عاماً، طرت عائداً إليها. كان نيلسون مانديلا هو الرئيس، و"أمة قوس قزح" قد أعلنت ومات التمييز العنصري. إن رجالاً عظماء وأحداثاً عظيمة أقنعت العالم الخارجي أن الحرية قد وصلت، وأن سكان جنوب إفريقية السوداء شعروا بهزة الحرية وهم يصطفون صفوفاً صابرين كي يقترعوا لأول مرة في حياتهم.

إن خيانة كفاحهم، ونواياهم الخيرة وتفاؤلهم موصوفة في الفصل الرابع. وهو بعنوان "التمييز العنصري لم يمت". كان هذا عنوان فيلم وثائقي أخرجته حال عودتي، وهو فيلم أثار نقاشاً حيوياً في جنوب إفريقية. إن التمييز العنصري أخذ اسمه وروحانيته من نظام حكم البوير الأول، ولكن دم حياته سال من الإرث البريطاني الإمبريالي من سيسيل رودس ورجال آخرين "رجال التجارة والصناعة". الذين قاموا عند منعطف القرن العشرين بسرقة الأرض، والموارد والحقوق الاقتصادية التي تملكها الأكثرية مع ميلادها. والفقر الذي خلقوه لم يتم إبعاده في جنوب إفريقية "الحرة"، مثلما تعهد بجدية المجلس الوطني الإفريقي. في "مناطق العزل العنصري" وصفت الظروف بأنها "بائسة"، مع وجود أكثر من خمسة ملايين طفل جياع ونظام صحي عاجز عن معالجة الأمراض الوبائية، مثل مرض نقص المناعة (الإيدز) ومرض السل[36].

لقد ظهرت نخبة جديدة، وهي منتج "تمكين السود" والمنتفع من الصفقات الخبيثة مع القوة البيضاء التي ما تزال تدير جنوب إفريقية. وقد قال تريفور مانويل، وزير المالية: "إننا نسعى إلى تأسيس بيئة يزدهر فيها الرابحون"[37]. ولكن أفراد القبيلة المعروفة تهكماً باسم "وابنزي" (فالمرسيدس بنز هي وسيلتهم المفضلة للمواصلات) قد بدؤوا يلقون نظرة فاحصة خلف أكتافهم على الصراعات العظيمة في الماضي، لأن مواطنيهم يتحركون مهتاجين ثانية ويطالبون بأكثر من الرموز. وانتفاضات المجتمع شائعة مرة ثانية ومناطق العزل العنصري ومخيمات المقيمين في

الأراضي غير المشروعة تحترق بالمشاعل إلى جانب مباني السلطة. وفي التمييز العنصري الكوني الذي خلقته الإمبريالية الاقتصادية الحديثة، فإن جنوب إفريقية تقدم الشبح والإنذار كليهما.

حين كانت القنابل الأمريكية الأولى تسقط على أفغانستان في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 2001 عقاباً على الهجمات التي كانت قد شنت على أمريكا قبل خمسة أسابيع، أذاع الرئيس بوش الرسالة التالية إلى ضحاياه النائين فقال: "سوف يعرف شعب أفغانستان المضطهد كرم أمريكا. ففي الوقت الذي نضرب فيه الأهداف العسكرية، سوف نسقط أيضاً الطعام، والدواء، والتموينات للجياع وللذين يعانون من الرجال والنساء والأطفال من أفغانستان. إن الولايات المتحدة صديقة للشعب الأفغاني"[38].

وفي الأسبوع السابق، قال طوني بلير بشكل جدير بالتذكر: "للشعب الأفغاني نقدم هذا الالتزام. لن نتخلى... وإذا تغير نظام حكم طالبان، فسوف نعمل معكم لنتأكد من أن نظام الحكم الذي يخلفهم هو حكم يستند إلى قاعدة واسعة، ويوحد جميع الجماعات العرقية ويقدم طريقة ما للخروج من الفقر الذي يكون وجودكم البائس"[39].

في الفصل الأخير، "تحرير أفغانستان". وضعت كلماتهما، بوش وبلير، في مقابل عواقب أفعالهما. فالهجوم على أفغانستان، الذي قيل إنه أول "نصر" في "الحرب على الإرهاب". سبب موت ما يقارب سبعة أضعاف عدد الذين ماتوا في البرجين التوأمين. وحين اختفت طالبان، سيطر على البلاد بعض الرجال الذين هم من أقسى الرجال وحشية في العالم، وهم أمراء الحرب أنفسهم الذين غذتهم أمريكا في أثناء الاحتلال السوفيتي، وهم الذين حولوا كابل، العاصمة إلى أنقاض. و"الحركة الليبرالية" في أفغانستان اليوم طبخة تلفيق غرائبي (سيريالي). وتضم "الديمقراطية" المحضرة أمريكياً، على سبيل المثال مولوي كلام الدين، وهو رئيس إدارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدى طالبان، وهو الذي فرض حكم الشريعة من خلال أشكال غير عادية من العقوبات والإساءة الجسدية. وتحرير المرأة سراب. وبينما لا

توجد القاعدة في أي مكان ليتم العثور عليها، تطير الدوريات الأمريكية بأكثر من المألوف من العلم الأمريكي وهي تشغل موسيقى الروك بكامل حجم الصوت وتهاجم قرى معزولة و"تسلم المتهمين" منهم إلى معسكرات الاعتقال (غولاغ) الخاصة بالاستخبارات الأمريكية المركزية.

حين سمعت دونالد رمسفيلد يصف أفغانستان اليوم بأنها "نموذج"للديمقراطية، فكرت في الكيفية التي سوف يقدر بها مؤرخي المفضل لحماقات الحرب غير المعقولة، وهو جوزيف هيللر، هذا التقويم من رمسفيلد. في الفصل الخامس، أروي محادثة كانت لي مع عقيد في قاعدة أمريكية، كان يشبه بشكل غريب "ميجر ميجر"* في رواية الشرط – 22** التي كتبها هيللر. ويبدو أيضاً أن وزير دفاع طوني بلير، وهو جون ريد، قد خطا خارجاً من صفحات رواية الشرط – 22 حين أعلن أن "الحرب على الإرهاب"في أفغانستان كانت "مترابطة" ترابطاً مطلقاً مع مكافحة المخدرات"[40] والصادرات الرئيسية للديمقراطية "النموذج"هو الهيروين، وهو الذي حظرته طالبان بنجاح، والذي يجني منه حالياً أمراء الحرب الديمقراطيون ثرواتهم. وينتهي المخدر في شوارع مدن مثل غلاسغو. على هذا النحو هي "اللعبة الكبيرة للأمم"التي طورها الرجال الإنجليز لابسو القبعات الخفيفة الواقية من الشمس والتي يفخر بها خلفاؤهم.

بعد أن غادرت أفغانستان، طرت إلى الولايات المتحدة، وكان قد بدأ فيها تمرد في المؤسسة "القديمة". قابلت راي ماكغفرن، وهو محلل سابق في الاستخبارات الأمريكية المركزية، وهو الذي كان قد أعد سابقاً الإيجاز اليومي للبيت الأبيض. وحين قلت له إن نورمان ميلر كان يعتقد أن أمريكا قد دخلت حالة "ما قبل

---

* هو اسم الشخصية الخيالية في رواية الشرط – 22.

** يشير إلى رواية بهذا العنوان لجوزيف هيللر. والعنوان نص في التعليمات العسكرية. وهو مجازاً يعني وضع الإنسان في قيد مزدوج غير معقول. مثل القول إن الشخص لا يستطيع الحصول على عمل من دون خبرة ولا يستطيع الحصول على الخبرة من دون عمل. وبذلك يقع الضحية تحت طلبات متناقضة وفي موقف لا يمكن الربح فيه (المترجم).

الفاشية"، كان صامتاً، ثم قال: آمل أن يكون على حق، لأن هناك آخرين يقولون إننا قد صرنا من قبلُ في حالة فاشية. فحين ترى من الذي يسيطر على وسائل الإنتاج هنا، وحين ترى من الذي يسيطر على الصحف والدوريات ومحطات التلفزة، وهي التي يأخذ منها معظم الأمريكيين أخبارهم، وحين ترى الكيفية التي تجري بها إدارة ما تسمى الحرب على الإرهاب، فإنك تبدأ بفهم إلى أين نحن متوجهون... وهكذا نعم، يجب أن نكون جميعاً قلقين بشأن الفاشية"[41].

صوت آخر من المؤسسة، هو بول كريغ روبرتس، محرر مشارك سابق من وول ستريت جورنال ووزير مالية مساعد تحت حكم ريغان، كتب يقول:

بدأت الولايات المتحدة تكتسب صورة ألمانيا النازية. ولا ينبغي أن يكون لدى الناس المطلعين جيداً أي مشقة في كتابة قائمتهم الخاصة بالعناصر المشتركة في كلا نظامي الحكم، نظام بوش ونظام هتلر: استخدام أكاذيب غير عادية لتبرير العدوان العسكري، والاعتماد على القسر والتهديدات في مكان الدبلوماسية والإيمان الكلي بفضيلة قضية المرء وحقانيتها، ومساواة الأغراض الحقيقية أو التحليل "المستند إلى الواقع"بالخيانة، وإعادة توجيه الوطنية من البلد إلى القائد، والإيمان بأن الهزيمة تكمن في الحوار وفي إضعاف الإرادة[42].

من السهل جداً استخدام "الفاشية"بصفة شتيمة، أو بصفة تسمية منهجية لكل شرور العالم، ولكن ما يسترعي الانتباه بشأن الحوار في أمريكا اليوم هو التحذير العائد المتكرر من المحافظين الذين يؤمنون بفصل السلطات بموجب الدستور. وقد كتب روبرتس يقول: "إن بوش، بالفعل، يؤكد السلطات التي تراكمت لهتلر في العام 1933... وهكذا فإن الولايات المتحدة قد وصلت إلى حافة الدكتاتورية[43].

في العام 2005، صوت مجلس الشيوخ الأمريكي، في الواقع، على إلغاء أمر الإحضار حين أقر المجلس تعديلاً أسقط حكماً من المحكمة العليا يسمح لسجناء خليج غوانتانامو بالوصول إلى محكمة فيديرالية. ومن دون أمر الإحضار وتشريعات

"الإجراءات القضائية"المحددة من قانون حقوق الأفراد، تستطيع الحكومة أن تحبس خصومها وتطبق حكماً ديكتاتورياً. وهناك قضية ليست غير نموذجية هي قضية دكتور أمريكي عوقب باثنين وعشرين عاماً في السجن لأنه أسس جمعية خيرية هي، "ساعد المحتاجين،" والتي ساعدت الأطفال في العراق الذين ابتلاهم الحصار الاقتصادي الذي فرضته أمريكا وبريطانيا في التسعينيات من العام 1990. وقد كسر الدكتور رافل ضافر هذا الحصار، في جمعه للمال من أجل الأطفال الرضع الذين كانوا يموتون من الإسهال، وهو الحصار الذي تسبب، بحسب ما تقول اليونيسيف(صندوق الطفولة في الأمم المتحدة)، بموت نصف مليون طفل تحت سن السنوات الخمس[44]. وقد دعا المدعي العام آنئذ، وهو جون أشكروفت، الدكتور ضافر، "إرهابياً"، وهو وصف هزئ منه القاضي نفسه في ما كان من الواضح بشفافية أنها محاكمة سياسية[45].

وبصورة سرية، تولى بوش سلطة متنوعة من "توقيع القرارات". وهي مراسيم لا تُعرف إلا قليلاً وتبطل القوانين التي أقرها مجلس الشيوخ وتسمح لبوش بأن يتجاهل التشريع، دع عنك ذكر معاهدة جنيف التي تمنع تعذيب السجناء. وبرغم كل شيء، ألقى الرئيس كلامه بلا تبصر، وصار الدستور الأمريكي "مجرد رقعة من ورق ملعون"[46].

وإلى جانب وكالات الاستخبارات، وسعت وزارة الدفاع مراقبتها المحلية كي "تحقق في جرائم وقعت داخل الولايات المتحدة"[47] وفي معسكر اعتقال (غولاغ) وكالة الاستخبارات الأمريكية، يسمح بالتعذيب وبالقتل. وفي العراق يُقنَّع المدى الحقيقي لمجزرة السكان المدنيين ولعقوبتهم، وبشكل ملحوظ المجازر واستخدام أسلحة الفسفور الأبيض في مدينة الفلوجة، يُقنَّع بنظام ناجح لرفع التقارير "ملحق بالوحدات العسكرية". وفي العام 2004، قدرت دراسة قامت بها مدرسة جون هوبكنز للصحة العامة، وراجعها نظراء آخرون، ونشرت في الجريدة الطبية البريطانية لانسيت، قدرت رقماً "محافظاً" هو مائة ألف نسمة قتلوا بالقوة النارية الأمريكية[48] وقدرت أربع دراسات أخرى رقماً أعلى[49].

إن بلاداً كانت في الماضي كريمة يجري تسميمها بسلاح غير مرئي من أسلحة التدمير الشامل: وهو الإشعاع من أسلحة يوجد اليورانيوم على رؤوس المقذوفات فيها (وهو المعروف باليورانيوم "المنضب") وهو إشعاع يعادل عدة مرات من الإشعاع الذي أطلقته قنبلتا هيروشيما وناغازاكي. والأطفال على وجه الخصوص هم العرضة للخطر لأنهم يلعبون في مناطق ملوثة تلوثاً كثيفاً، وزادت فيها السرطانات ثلاثين ضعفاً. وأكثر من نصف المصابين بالسرطان في العراق هم من الأطفال تحت عمر خمس سنوات. لقد رأيت أجنحة المستشفى ممتلئة بهؤلاء الأشباح الصغار المتحولين المشوهين[50].

كنت في الماضي أعتقد بأن هؤلاء الذين يتولون السلطة والمسؤولية لو رأوا فقط ما سبق لي أنا رأيت، من هول الحرب وانحطاطها، لتصرفوا بشكل مغاير. كان ذلك سذاجة، وذلك لأن قوة الرفض الشعبي فقط هي التي تغير مسارهم، أو تخلصنا منهم. وهم يفهمون ذلك. وذلك هو السبب، الذي من أجله تجرّم المخالفة في الرأي مثلما تجرّم السلطات القانونية للدولة،.

ففي بريطانيا، واعتباراً من 1 كانون الثاني/يناير من العام 2006، يمكن أن يلقى القبض عليك بسبب أصغر الإساءات. وهذا الأمر موجه بوضوح ضد الاحتجاج السلمي. إن مايا إيفانز، التي تعمل طاهية نباتية، والبالغة من العمر خمسة وعشرين عاماً، سيكون لها سجل إجرامي طوال بقية حياتها. لقد ألقي القبض عليها بموجب قانون جديد هو قانون الجريمة الخطيرة المنظمة وقانون الشرطة، وذلك لأنها قرأت بصوت عال عند النصب التذكاري للجندي المجهول في لندن أسماء سبعة وتسعين جندياً بريطانياً قتلوا في العراق. لقد كانت جريمتها خطيرة إلى درجة استدعت أربعة عشر شرطياً في سيارتين كبيرتين للقبض عليها[51].

أما جون كات، وهو يبلغ من العمر ثمانين عاماً، وخدم في القوات الجوية الملكية في الحرب العالمية الثانية، فقد أوقفته الشرطة في برايتون لأنه كان يرتدي قميصاً "مسيئاً" بشكل حرف تي وكان يوحي أن بوش وبلير يجب أن يحاكما من أجل جرائم الحرب. لقد ألقي عليه القبض بموجب قانون الإرهاب ووضعت الأصفاد

في يديه، وذراعاه ملويان خلف ظهره. ويقول سجل الإدارة عن القبض عليه إن "الغرض"من تفتيشه كان هو "الإرهاب" و"أساس التدخل" كان "حمل بلاكارد وقميص حرف تي عليه معلومات مضادة لبلير" (هكذا). وفي وقت كتابة هذا الكتاب فهو ينتظر حالياً المحاكمة لرفضه قبول تحذير من الشرطة[52].

إن هذا الاستيلاء على القانون لغايات سياسية ليس أمراً مختلفاً عن هدم حكم المحكمة العليا الذي صدر لصالح سكان جزر تشاغوس. هل هذه هي البداية لنوع من الفاشية تكون فيها اجتماعات المسيرات العسكرية العظيمة غير ضرورية مطلقاً؟ لقد حذر جورج أرويل من أن الشمولية لا تحتاج إلى دولة شمولية. وإن العواقب الناجمة عن قرارات اتخذها سياسيون "ديمقراطيون"محترمون هي الآن تذكر بالقرارات التي اتخذها الفاشيون.

الفرق هو في المسافة. إن جميع سكان الأرخبيل البريطاني في تشاغوس قد جمعوا وطردوا، وأجبرت النساء والأطفال على الدخول في قاع هيكل السفينة من دون توفير ماء عذب بطريقة تذكر بالرق. وفي الوقت الذي كان يحدث فيه ذلك العمل، بقي البريطانيون في الوطن أحراراً، تحميهم القوانين. ولكن ذلك يتغير الآن. إن المسافة تتضاءل.

لقد كتبت كتاب الحرية في المرة القادمة لأحذر من هذه المخاطر ولأحتفي بأولئك الذين يتحدونها. إن الكتاب يتابع موضوعات كتبي السابقة مثل، الأبطال، والأصوات النائية وجداول الأعمال الخبيثة، وقد تم تمييز هذا الأخير حديثاً بختم "مرفوض"من رقباء خليج غوانتانامو[53]. وهذا الكتاب ليس متشائماً. وفي خبرتي، إن معظم الناس لا ينغمسون في حماقة "قواعد"السلطة الجشعة. وهم لا يشوهون أخلاقياتهم وفكرهم لتتطابق مع المعايير المزدوجة ومع فكرة الشر المقبول، ومع فكرة الضحايا الأجلاء القيمة وغير الأجلاء القيمة. إن معظم الناس يوافقون مخلصين من كل قلوبهم مع روبرت جاكسون، المستشار الرئيسي للولايات المتحدة في محاكمات نورمبرغ للقادة النازيين. وقد قال: "إذا كانت أفعال معينة من خرق المعاهدات جرائم، فهي جرائم سواء فعلتها الولايات المتحدة أو فعلتها ألمانيا، ونحن

غير مستعدين لنقرر قاعدة للسلوك الإجرامي ضد الآخرين ولا نكون راغبين في أن يستشهد بها ضدنا"[54].

تبين استطلاعات الرأي، في بريطانيا، أن الأغلبية تعارض غزو العراق واحتلاله وتعتقد أن رئيس الوزراء قد كذب عليهم. وفي الانتخابات العامة البريطانية في العام 2005، لم يكد الخمس من السكان البالغين يصوت لحكومة بلير في ثاني أخفض حضور منذ صدور امتياز الانتخاب. هذه ليست لا مبالاة، بل هو إضراب غير معلن يعكس وعياً متصاعداً، لا بل شعوراً يقدم أكثر من الأمل.

ونظراً إلى أن الصليبيين في واشنطون بدّدوا تعاطف معظم البشرية مع ضحايا 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، لكي يسرعوا هيمنتهم الخاصة، فإن ذكاء عاماً نقدياً قد استغضب. شاهد الاستجابة الهائلة للناس في الغرب نحو كارثة تسونامي في 26 كانون الأول/ديسمبر من العام 2004. وفي الوقت الذي قدم فيه بوش أقل من تكلفة حفلة تدشين رئاسته وقدم فيه بلير واحداً من عشرين من قرض أعطي إلى نظام الحكم الإندونيسي ليستطيع أن يشتري طائرات حربية بريطانية، فإن الناس العاديين قدموا الملايين. كان هذا أكثر من الإحسان، كان هذا استعادة لسياسات المجتمع، وللأخلاقيات، والإيمان بالتعاون بين الأمم.

سبق للمعلق الأمريكي المشهور وولتر ليبمان أن وصف الجمهور بأنه "القطيع المحتار"[55]. ويشاركه في هذا الاحتقار أولئك الذين يخافون كشف القناع عن مناعتهم الظاهرية ضد الهزيمة حين يغير "القطيع"اتجاهه فجأة. ففي الستينيات من العام 1960، وفي الولايات المتحدة، فإن حملة الحقوق المدنية أنهت الآثار المتبقية من الرق. وقد تحالفت الحملة مع الحركة التي أوقفت حشداً عسكرياً بكل الجهود الممكنة كان سيشعل آسيا وما وراءها. ومِثلُ أنصار الحركة العمالية للإصلاحات الديمقراطية والانتخابية والمقاتلين الصليبيين الآخرين الذين قاتلوا من أجل الحريات التي يتمتع بها كثيرون منا، فإن الجمهور قد عرف أنه إذا كانت السلطة لا تهزم حقاً فإنها لن تخيف الناس إخافة كبيرة إلى درجة تستهلك معها موارد ضخمة تحاول بها أن تصرف انتباههم وتخدعهم.

أنا لا أقدم أي شيء من هذا ببلاغة خطابية، فالتجديد الإنساني ليس ظاهرة. واستمرار الصراع قد يبدو في بعض الأوقات مجمداً، ولكنه بذرة تحت الثلج. انظر إلى أمريكا اللاتينية، التي أُعلنت لمدة طويلة غيرَ مرئية، وقابلة للاستهلاك والتضحية بها في الغرب. لقد كتب إكواردو غالينو "إن الأمريكيين اللاتينيين قد دربوا على العجز. وإن تربية انتقلت إلينا من العهود الاستعمارية، علمها لنا جنود عنيفون، ومعلمون خائفون، وقدريون ضعفاء، قد جذّرت في أرواحنا الإيمان بأن الواقع غير قابل للمس وأن كل ما نستطيع أن نفعله هو أن نبتلع بصمت الأحزان التي يأتي بها كل يوم"[56]. كان غالينو، وهو منشق وشاعر، يحتفي بإعادة ميلاد الديمقراطية في أرض وطنه أروغواي، التي صوت فيها الناس "ضد الخوف". وفي فنزويلا، يرأس هوغر شافيز الحكومة الوحيدة على الأرض التي تتقاسم ثروة نفط الأمة مع أفقر فقرائها. وفي بوليفيا، وهي أفقر دول أمريكا اللاتينية جميعاً، قام السكان المحليون، بعد أن كانوا قد أجبروا الشركات الأجنبية على الخروج، وهي التي كانت قد "امتلكت" ماءهم، قاموا بانتخاب أول قائد من السكان المحليين في القارة.

هذه القوى جزء من حركة تمتد على اتساع العالم تقوم ضد الفقر والحرب وتزييف المعلومات التي ظهرت في أقل من عقد من الزمان، وهذه الحركة أكثر تنوعاً، ومبادرة، وإيماناً بتعاون الأمم وتسامحاً مع الاختلاف، من أي شيء حدث طوال حياتي. وهي أيضاً غير مثقلة بالنرجسية الغربية، التي لا حصة لها في الحرية مثلما يعرف أحكم الناس. ويعرف أحكم الناس أيضاً أنه مثلما تنجلي الآن العناصر الغامضة في غزو العراق، فكذلك يمكن أن تنجلي أيضاً عناصر منهج كامل للهيمنة وللإفقار.

* * *